الزوجة الحقيقية

مسكينة الفتاة التي تغرس في مستقبلها غصناً من الورد وتستفيق بغتةً فتجد امامها اكليلاً من شوك .

مسكينة الفتاة التي تزرع بذور آمالها في ارض قاحلة فلا تلبث تلك البذور ان تجف وتلك الآمال ان تيبس .

مسكينة الفتاة التي تظن السعادة في الزواج . فتتزوج ولا تذوق كاس حبها حتى يصبح الزوج وحشاً قاسياً وتتحول تلك المحبة الى بغض وعداوة

. . .

كانت اسما وحيدة اهلها . وكانت فتاة ارق من اللطف والطف من الحب عرفتها وكنا صغيرين لا نعرف من الدنيا شيئاً . عرفتها وقد ربينا كلانا في قرية واحدة ومدرسة واحدة ولا ازال اذكرها قدوة رفيقاتها ومثالاً حسناً لمن يحيط بها . وكثيراً ما كنا نناديها باسما العاقلة تمييزاً لها عن سواها . وانقضت الايام ومرت الاعوام فتركت المدرسة والقرية ولم اعد اسمع بذكر اسما من ذلك الحين .

زرت في صيف السنة الماضية قريتي التي احبها كثيراً وكانت عواطفي تهتز سروراً لرؤياها بعد ذلك الغياب الطويل . وكنت اسير بين البساتين في الطريق الموصلة اليها وعوامل الشوق وذكرى الايام التي قضيتها مع ارفاق « صغار » نمرح في تلك الحقول ونركض تحت الاشجار التي كثيراً ما حملتنا وحملتنا من اثمارها تعيد علي الماضي بكل ما فيه من اللذة والسرور . واخذت اعيد على ذاكرتي اسماء الارفاق الذين جمعني واياهم الزمان في غياض تلك القرية الجميلة فوجدت ان الزمان قد حمل اكثرهم الى العالم الجديد وانزل بعضهم الى اسواق المدينة وترك العدد القليل منهم يحرسون بساتين قريتهم الصغيرة .

وكنت اتقدم حتى ادخل القرية واذا بي اسمع اصوات صبيانها يهرجون ويلعبون فحنت نفسي شوقاً لتلك الايام وكأن ذكرى الماضي ارادت ان تسقط دمعة من عيني فادرت ظهري الى الحائط استريح . واذا بامرأة يدها طفل صغير آتية من بعيد . رأيتها وقد وصلت الى دالية تحمل عنباً فجلست تحتها واجلست صغيرها بجانبها . وسرت الى ان اقتربت نحوها ولاول وهلة وقع نظري على ذلك الجسم الناحل والتقت ابصاري بتلك العين الذابلة شعرت بقشعريرة في جسدي وقلت : العلي اعرف هذه المرأة ؟

واوردت ان اتابع سيري فسمعتها تنادي باسمي فوقفت .

وامرورقت عين المرأة بالبكاء وقالت لي انسيتني يا صديقي ؟

وعادت تذكارات المدرسة الى مخيلتي وقلت في نفسي ايمكن ان تكون هذه المرأة الناحلة هي . انجولـــ اسما العائلة الى امراة منكودة الحظ وتستعيض عن رونق صبوتها وجمال شبابها بهذا الاصفرار وعن سرورها الماضي بهذا الحزن وكانها عرفت ما يخامر فكري فادارت نظرها نحوي وقالت لي تفضل ايها الصديق واجلس . ولا اظنك ناسي صداقتنا القديمة او خاجلٌ من ان تعترف بها . فانا اسما ! ولا تتعجب فهذه حالة الدنيـا والزمان قد حالفني عَلَى الشقاء فانا شقية . فاذا كنت كما اعهدك لطيفاً محباً فتكرم بالجلوس وخذ درساً مفيداً عن حياتي وتأمل كيف يتقلب الزمان بابنائه فتتحول النعمة الى نقمة والزوجة الامينة امرأة مهجورة متروكة لا حظ لها من الدنيا . وان كانت المدنيـة الحديثة قد جعلت الفتى القروي شاباً عصرياً متمدناً فسر في طريقك يا صديقي القديم فحديث امثالي لا يلذ لامثالك

وكانت اسما تتكلم وانا مصغٍ كاني اسمع فصلاً من رواية محزنة واكاد اصدق ان ما اسمعه وهماً لا حقيقة . وتأملت ثانية في تلك المخلوقة العائلة فرأيت الدموع تتساقط من عينيها وقد آلم هذا المنظر طفلها الصغير فاخذ يبكي لبكاء امه ولم املك نفسي عَلَى تلك الحال فبكيت معهما وتجلدت قليلاً وقد اشتاقت نفسي لسماع حديث الصديقة الماثلة في ذلك الحين المرأة التاعسة الباكية في هذا الوقت وقلت لها لا تبكي يا اسما فمصائب العالم وان تكن عظيمة فالقلوب الكبيرة اوسع منها وانها لاحقر من ان تسقط لك دمعة واحدة وكاني بك تغسلين بدموعك هل يوم فقولي لي ما لدي يبكيك يا اسما .

ومدت يدها الى جيبها فلم تجد منديلاً تمسح به دموعها فتأثرت لفقرها المدقع واخذت طرف ثوبها فمسحت عينها ومدت يداً لا تزال آثار النعمة والجمال تلوح عَلَى ظاهرهـا وقطفت عنقوداً من العنب لطفلها فاسكته . ثم التفتت نحوي والاسف والخجل ظاهران عَلَى جبينها وقالت لي أتريد ان تسمع قصتي وقد خامرك العجب من الحالة التي انا بها فهـا اني أقصُّ عليك ما جرى فاعذر او فلم ايها الصديق ولا اعلم بايها انا اولى . ولا تظن بكائي عن ضعف وجبن بل بكيت لذكر الايام التي وردت الى خاطري حين رأيتك واني ذكرت الحالة التي كنت بها وقابلتها مع ما انا عليه الان فبكيت

تعلم يا حميدي اني كنت وحيدة اهلي وقد توفي ابي وانا لا اعرفه فربتني امي ولم تبخل بحياتها في سبيل سروري ونشأت وانا لا اعرف هماً ولم اتعود تعباً . وكنت وانا في المدرسة

ارى العالم جميلاً وحلواً واحسب لبساطتي وصفاء نيتي ان من حولي بسيطاً وعاقلاً وصادقاً

وانتهيت من المدسة فلازمت البيت وكنت اساعد امي في اشغالها القليلة ولم يطل ذلك اذ انبأوني بان كثيرين من شبان القرية يطلبونني زوجة لهم . ولم اكن قد افتكرت في الزواج ولا خطر لي في بال فوقع هذا النبأ موقع الخوف والاستغراب فسهلوا الامور عليّ واروفي ان ذلك لا بدّ منه ثم اختاروا لي عريساً فكنت لا اكله ولا اراه الا اذا اتى الكنيسة او مرّ مع ارفائه امام بيتنا .

وقضي الامر ايها الصديق فتزوجت وانا اظن السعادة في الزواج . وكان اول ما تنبه خاطري له اني رايت نفسي وقد انتقلت من وسط قديم الى وسط جديد ولاح لي ان نفسي ستمازج نفساً جديدة فاحببت ان تكون حياتي سعيدة وهنيئة فكنت عنوان الاستقامة والامانة والصدق والطاعة وكان زوجي شاباً جميلاً تلوح على محياه دلائل الادب والشهامة فملت بكليتي اليه وكنت له اطوع من بنانه ولا تتدتر كم كنت سعيدة به وانا احسبه سعيداً بي وقضينا الشهور الاولى ونحن على غاية السلامة والسعادة . ولكن اسفاه ان ذلك لم يطل وقد ابتدأت اشعر ان زواجنا لم يكن مبنياً على التفاهم الحسن ولم تكن اساساته المحبة الحقيقية

واتى ذات مساء مع اصدقائه العديدين فجلسوا يشربون ويفرحون وقد انزويت لوحدي . واسفاه اني لا ازال اذكره وكم كان مجهولاً حين قدومهم فلم يمض الوقت القليل حتى امتزج معهم واصبحت لا اكاد افوقه عنهم .

وتعجبت في الليلة التالية اذ رايتهم حضروا وابتدأوا يشربون ويقامرون ورأيته وقد شاركهم في ذلك فلم املك ان قمت الى غرفتي فالقيت راسي على وسادتي وتأملت في الهاوية الهائلة المفتوحة امام زوجي وقلت في نفسي ان الوقت قليل ويجب ان ابذل جهدي لاخلصه من حالته الحاضرة . وانصرفوا بعد منتصف الليل واتى زوجي لينام فلاحظته وكلمته فظل ساكتاً ولم يتكلم . وكنت احاذر الغلطة الاولى بيني وبينه واخشى ان تقع .

وجاء اليوم الثاني فنهض بعد العشاء وانصرف ولم يعد حتى اواخر الليل وتركته يفعل ما يشاء حتى فرغت جعبة صبري فجلست مرة بجانبه والقيت راسي على يده فقبلني في جبيني وقلت له لما ملوتني ايها الحبيب وهل بطاوعك ضميرك ان تتركني في كل مساء وانا وحيدة منفردة لنفسي في هذا البيت) وكأنه تاثر لما بي فعلا الاحمرار وجهه واستدرك فقال : ان جماعة الاصحاب ينتظرونني في كل مساء وقد عاهدتهم على الحبّ ولا اعلم كيف اتخلص من وعدي . قلت له دع عنك هذه الاوهام يا عزيزي وقل لهم ان المتزوج مثلي لا يحق له

ان يترك زوجته في امثال هذه الليالي المظلمة وتعال وابقَ معي يا حبيبي . فالالفة العائلية هي السعادة التي يطلبها الزوجان واذا شئت فلدي كتاب عن الحياة العائلية اقرأه لك ولا اشك بانك تسرّ بسماعه كثيراً وبالعظم سروري حين رأيته قد اقتنع بكلامي فكنت اقرأ في اللغة الانكليزية واترجم له للعربية اذ لم اجد كتاباً عربياً يناسب المقام . وقضينا تلك الليلة على اتم سرور . وجاء اليوم الثاني احدهم بعاتبه فاعتذر لمرض المّ به وكنت اريده ان يتكلم الحقيقة واشرت اليه بذلك فلم يفعل . وكانت امي مريضة فذهبت واياه في الليلة التالية لزيارتها ونمت تلك الليلة عندها وتركته باتي البيت لكنه واسفاه جعل طريقه الى حيث قادته رجله ولما اتيت البيت صباحاً لم اجده وحضر بعد قليل وكان قد صرف تلك الليلة عند اصحابه .

وشاع في اليوم الثاني ان زوجي خسر في ذلك المساء مبلغاً وافراً من المال . ومانت امي في ذلك الحين فكانت المصائب تحيطني وانا لا اعلم ماذا افعل . ووسوست في اذني احدى النساء قائلة : ان زوجك يحب منك مالك فلعنت المال والزواج معاً . وجاء في يوماً منكسر القلب فاسفت على شبابه وقال لي ان الديون تراكمت عليه واصبح لا يملك شيئاً وقد ضاقت الدنيا في عينيه . قلت له يا عزيزي ان ذلك ناتج عن اسرافك وتبذيرك وها انا في البيت لا انفق شيئاً وجدّا لو تركت هذه العوائد المتسلطة عليك فنعيش براحة بال وهدو ضمير فننسى الماضي ولا يزعجنا الاتي . فوعد خيراً وطلب ان يفي ما عليه اولاً . وكنت لا اعلم السبيل الى ذلك فقلت له عليك بالشغل يا عزيزي فانت في مقتبل الحياة والعمل شرف للانسان . وكأنه تذمر من جوابي فالتفت اليّ وقال : ما عساني اعمل في هذه القرية وقد تعاطيت عملاً منذ زمن فخسرت رأس مالي ولم يبقى لديّ شيء . بل اذا شئت فلتبع قطعة الارض في جوار القرية فمدخولها قليل وثمنها باهظ جداً ويمكننا اذ ذاك ان نفي ما علينا ونعيش بسرور وسلامة . وخشيت ان يقع الشر بيننا فقلت له كل ما لي لك ايها العزيز واني لا اشور عليك بذلك ولا ارضى به ومع ذلك فانت ادرى واذا كنت لا ترى بدّاً منه فانا لا اعارضك في عمل ما طالما انت زوج حقيقي يهتم بمصلحة نفسه وبيته . وباع قطعة الارض وكنت اظنه ياتيني بالمال لانه مالي فعاد وقال لقد وفيت كل ما عليّ .

ورزقنا الله هذا الغلام تلك السنة ففرح به ولازم البيت وكنت اظن الطفل سيكون سبباً لعلاقة شديدة بيننا فيحفظ والده لي ويمنعه عن التهور فيما كان عليه . وبقينا على تلك الحالة اشهراً